وفي آذار ١٩٧٨ شنت إسرائيل حربها الأولى ضد الفلسطينيين الذين يعاضدهم الوطنيون اللبنانيون فقط. ووقف العالم العربي، حكومات وجماهير، متفرجاً على ما يجري. ثم عادت إسرائيل في ١٩٨١ إلى شن حرب أخرى على شكل حرب مواقع، ولم يكن الحال في الوطن العربي بأفضل مما كان عليه في ١٩٧٨. ثم جاءت الجولة الثالثة في حزيران ١٩٨٢، وبدا، مع حدتها، أن العالم كله، والعالم العربي، قد اتفق على «إنهاء» منظمة التحرير الفلسطينية. ومن المفارقات العجيبة، أن يخرج مائة ألف متظاهر في إسرائيل احتجاجاً على شراسة إسرائيل ضد الفلسطينيين، ولا يخرج في كل طول هذا «التابوت العربي» وعرضه، أي محتج على ما كان يجري في بيروت آنذاك. بل إن جزءاً طويلاً من المفاوضات تناول مسألة استعداد الدول العربية لاستقبال المقاتلين الفلسطينيين الذين سيخرجون من بيروت، وكان لكل دولة ثمن تريد تقاضيه مقابل استقبال بعض الفلسطينيين، منه المادي ومنه السياسي.

إغلاق الدائرة

كيف حصل أن لم يخرج مواطن عربي للاحتجاج على ما تقوم به حكومته، وهو الذي كان يخرج لأي أمر، صغر أو كبر، في أي مكان من أرجاء العالم العربي؟

إن السيرورة الكيانية للأقطار العربية، التي بدأت مسارها مع التشكل الجيو-بوليتيكي، الذي بدأ يتأطر، مع انحسار الاستعمار القديم، في دول مستقلة ذات سيادة، تكرست أسسها الأولى عالمياً في قبول تلك الدول في إطار الأمم المتحدة كدول ذات سيادة، وتكرست أسسها عربياً في أساس تشكيل جامعة الدول العربية. وتطورت في مسار انفصالي، بالرغم من استمرار الإعلان عن غرضية الحالة، حتى أن الظواهر التي طرحت نفسها نقيضاً لتلك الانفصالية عجزت مع وصولها للسلطة في بعض الأقطار عن الخروج خارج الحالة، وترجمة البديل الذي كانت تدعو له عملياً (استلام البعث للسلطة في سوريا والعراق لم يسهم في إعادة الوحدة مع مصر، كما لم يسهم في توحيد القطرين اللذين كان يحكمهما بالرغم من وجود قيادة قومية واحدة للحزب).

كما تكرست السيرورة الانفصالية من خلال القوانين التي بدأت تسنها الأنظمة العربية في حدود حجمها الجغرافي ــ السياسي، بدءاً من قوانين الجنسية، وانتهاء بقوانين التنقل بين الأقطار العربية. ولم يكن الوضع التحتي أفضل من ذلك. فقد صار لكل قطر عربي خططه التنموية الخاصة به، وارتباطاته الخاصة به أيضاً في أسواق العالم، انطلاقاً من مصالحه، ودون النظر إلى ما يمكن أن يكون مشتركاً (قد يكون الفشل المزمن لمشروع إعادة تشغيل خطة سكة حديد الحجاز خير مثال). ورافق ذلك توجيه إعلامي، خجول في البداية، واضح وفج بعد استقرار الأنظمة، لتكريس هذا المسار ودفع السيرورة الانفصالية نحو التشكل النهائي لها، أي صيرورة تلك الأقطار دولاً، وقد تصبح في وقت لاحق أمماً، لا يجمعها جامع.

حتى أن الحركات السياسية التي ظهرت بعد ١٩٧٠، بالرغم من تناديها لتشكيل حركة عربية، بغض النظر عن أيديولوجيا كل حركة، ظلت مؤطرة في حدود أقطارها، ولم تنفع نواياها الطيبة، بالرغم من بعض المساعي، في تشكيل أي إطار عربي.